مجلة الرائد

العدد : ٢٣٣ الموافق في ذو القعدة ١٤٢٢ هجري ٢٠٠٢/١ ميلادي

| عنوان المقال : خاطرة حول أصول التربية الإسلامية | الكاتب : أ. متولي موسى |
|---|---|

لا شك أن مبادئ كل أمة تؤثر في التكوين التربوي لأبنائها ، فهي التي تصدر عنها الأهداف ، وهي التي تحدد الوسائل المستخدمة لتحقيق هذه الأهداف ، وهي التي تحدد السلوك التربوي في كل عصر وفق الظروف والإمكانات البشرية المتوفرة .

يمكن القول : إن المبادئ التي تحكم العملية التربوية في الإسلام ليست مستنبطة ومكتوبة ، وإنما حددها الشارع الحكيم ومعلنة ، بل وتنشر على الناس في كل يوم وليلة خمس مرات ، ينطق بها المؤذن بأعلى وأحسن صوت ، تلك المبادئ هي التي تتردد في كل مرة يُعْلَن فيها الأذان والإقامة للصلاة المكتوبة .

والحديث عن كل مفردة من مفردات هذا النداء العظيم يحتاج إلى حديث مفصل ، ولكنني سوف أقتصر في هذه المقدمة على عدد من الملاحظات التربوية فقط ، فأذكّر بما يأتي :

① الحديث عن أصول التربية ينبغي أن تكون غايتُه أكبر من الفرد والجماعة ، وأن لا تكون غايته محدودة في المكان أو الزمان ؛ وكل تربية إنسانية غير التربية الإسلامية ليست لها هذه الغاية ، فهي إما محدودة بالمكان أو الزمان ، مما يجعلها ناقصة محدودة وأحياناً متخبطة في أهدافها وغايتها !!!

أما تربية الأنبياء والمرسلين وخاتمهم محمد - صلوات اللّه تعالى وسلامه عليهم - فقد حددت الغاية وبينت أنها فوق الفرد وفوق المجتمع ، وليست محدودة بزمان أو مكان معين ، فغاية التربية تكوين الفرد المُوَحِّد لله تعالى ، وأن يصدر الفرد والمجتمع في السلوك والمعاملات والعلاقات عن منهج الإسلام القائم على توحيد اللّه تعالى والالتزام بشرعه ، أي أن الإنسان في أي مكان وفي أي زمان يلتزم بالمنهج الذي حدده اللّه تعالى ولا يصدر عن الأهواء والنزعات الفردية أو الجماعية .

② إذا صدر كل من الفرد والمجتمع عن شرع اللّه تعالى ، فإنه إذا خالف الإنسان أو حدثت المخالفة الاجتماعية كان هناك نظام « الحسبة » أو « القضاء » الذي له حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أي قام المصلحون بدورهم لإعادة التوازن في حياة الفرد والمجتمع ، كما فعل الأنبياء والمصلحون مع الضلالات التي وجدت في مجتمعاتهم ؛ وهنا أذكر فقط بما ورد في كتب السيرة النبوية ، التي تنقل لنا موقف خاتم الأنبياء محمد ﷺ ؛ حين قال له عمه أبو طالب : ( يا ابن أخي ، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي : كذا ، وكذا - للذي قالوا - فابق على نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول اللّه ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته . فقال : « واللّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللّه أو أهلك فيه ، ما تركته » ( سيرة ابن هشام ) [١] .

③ العبد المؤمن الذي رزقه اللّه تعالى الذرية يحرص على أن يربيها على الإسلام ، ويقوم على تنشئتها تنشئة صالحة ، حتى يكون شاكراً لتلك النعمة ، ومما يرغب الوالدين في تربية الأبناء تربية الخير والصلاح ، أن من عاش منهم بعد موت والديه نفعهما بالدعاء ، مصداق قول الرسول ﷺ : « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلَاثَ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » ( رواه مسلم في صحيحه ٣٠٨٤ ) ؛ ومن مات من الأبناء وهو صغير نفع والديه يوم القيامة بإدخالهما الجنة كما ورد في الحديث : عن أبي حسان ﷺ قال : توفي ابنان لي ، فقلت لأبي هريرة ﷺ : سمعت من رسول اللّه ﷺ حديثاً تحدِّثناهُ تطيب أنفسنا عن موتانا ! قال : نعم ، « صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ [٢] الْجَنَّةِ ، يَلْقَى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ ، أَوْ قَالَ : أَبَوَيْهِ ، فَيَأْخُذُ بِنَاصِيَةِ ثَوْبِهِ أَوْ يَدِهِ ، كَمَا آخُذُ بِصَنِفَةِ [٣] ثَوْبِكَ هَذَا ، فَلَا يَفَارِقُهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ » ( رواه مسلم في صحيحه ٤٧٦٩ ) .

④ من أظهر المسؤوليات التي اهتم بها الإسلام وحض عليها ووجه الأنظار إليها أن تكون حياة الإنسان كلها لله تعالى ، قال عزَّ وجلَّ : { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [ الأنعام : ١٦٢-١٦٣ ] ؛ وبناء على ذلك فإن مسؤولية المربين تجاه من لهم في أعناقهم حق التربية والتعليم عظيمة ، وهي مسؤولية كبيرة وشاقة في آن واحد .. تبدأ قبل ميلاد الطفل وتستمر بعد الميلاد متدرجة مع المولود في فترات الحضانة والتمييز والمراهقة .. إلى أن يصبح بالغاً مكلَّفاً ..

ولا شك أن المربي سواء كان أباً أو أماً أو معلماً أو مشرفاً اجتماعياً .. حين يقوم بالمسؤولية كاملة ، ويؤدي ما عليه بكل أمانة وعزم ومضاء ، على الوجه الذي يطلبه الإسلام ؛ يكون قد بذل قصارى جهده في تنشئة العنصر الصالح أو اللبنة الصالحة في تكوين الأسرة الصالحة والمجتمع الصالح .

⑤ ولقد أصبح معلوماً أن المناهج التربوية تؤثر في طريقة التعليم والسلوك ، كما أنها تتأثر - عند

نشأتها - بما هو سائد وذائع في المجتمع من سلوك وطريقة تعليم ، ولا شك أن الدين المعلن بمبادئه يؤثر على العاطفة والوجدان ، ولذلك كانت مناهج التربية قائمة على إثارات وجدانية منذ الطفولة ، وتتدرج مع الإنسان بأسلوب مناسب مع نمو العقل ونمو العاطفة ، ولا بد أن يكون مع نمو العاطفة الدينية غرس عقيدة التوحيد التي تضبط الإرادة والرغبة الإنسانية ، فلا تسير الإرادة ولا تتجه الرغبة إلا تبعاً لما تحدده العقيدة في حياة الإنسان الفرد والجماعة والمجتمع .

لذا أوجب الإسلام العناية بالجنين في رحم الأم ، فحرم الإيذاء أو إلحاق الضرر به بشكل من الأشكال ، فقد ورد من طريق عبيد اللّه عن نافع قال : « كانت بنت لابن عمر تحت رجل من قريش ، وكانت حاملاً ، فأصابها عطش في رمضان ، فأمرها ابن عمر أن تفطر وتطعم عن كل يوم مسكيناً » ( أورده الطبري في تفسيره ، وقال الشيخ ناصر في الإرواء - رقم ٩١٢ - حديث صحيح ) ، وعن معاذ بن جبل ﷺ قال : « والحامل والمرضع إذا خافتا على أولادهما أفطرتا وأطعمتا » ( ورد في سنن أبي داود ، وقال الشيخ ناصر في الإرواء - رقم ٩١٣ - حديث صحيح ) .

وأمر بالاحتفاء بالطفل بعد ميلاده ، فحث على البشارة بالمولود ، وأمر بتسميته وحلق شعر رأسه والتصدق بوزنه فضة وبالعقيقة .. ؛ كما اعترف بحقوقه بعد ولادته حياً ، فأوجب له الميراث وغير ذلك من الحقوق .. ( ويمكن لمن أراد المزيد مراجعة كتاب الكاتب حول تربية الأطفال في فترة الحضانة ) .

⑥ أما إذا وصل الإنسان إلى سن التمييز فإنه يُربى على المبادىء التي تضمنها الأذان ، وهي مبادىء تربوية كلية تحدد مبدأ الوجود والغاية من الحياة وتعرف الفرد والمجتمع بما يريده مُوجد الكون والإنسان ﷻ ، فإن لقول « اللّه أكبر » غاية ، وهو مبدأ تربوي أساس ، فـاللّه تعالى أكبر من الكون وما فيه ، أي أكبر من الإنسان والإنسانية ، وأكبر من الجماعة وكل من في الكون ، أي أن الإنسان عليه أن يدرك أن الذي أوجده ﷻ ، أوجده لغاية عليه أن يدركها كما بينها اللّه سبحانه في الرسالة الخاتمة ، فالفرد والجماعة في الإسلام خاضعان لما هو أكبر من الفرد وأكبر من الجماعة ، ذلك هو الخالق البارئ المصور .

وبهذا يتبين أن التربية في منهجها راجعة إلى اللّه سبحانه، خاضعة لأحكامه في حياة الفرد والمجتمع ، وقد تحققت في واقع الحياة فوجدت خير أمة مصداق قول اللّه تعالى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... } [ آل عمران : ١١٠ ] .

الهوامش :

(١) ذكر الشيخ الألباني في فقه السيرة للغزالي : [ حديث ضعيف أخرجه ابن اسحاق ( ١٧٠/١ ) . وقد أخرج هذه القصة مختصراً الطبراني في الأوسط والكبير من حديث عقيل بن أبي طالب ، وفيه مكان قوله : لو وضعوا الشمس .. ما نصه : « واللّه ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه شعلة من نار » وفيه عقب هذا فقال أبو طالب : « واللّه ما كذب ابن أخي قط ، ارجعوا راشدين » قال الهيثمي في " المجمع " ( ١٥/٦ ) : « رواه أبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح » ] .

(٢) واحد دُعموص : أي صغار أهلها .

(٣) الصنفة : الطرف والجانب